

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

للثقافة في أذهان الباحثين فهمان شهيان ، يتفقان في جزء من مفهومهما ، ويختلفان في الجزء الآخر . فأما أول الفهمين فهو قائم بأذهان أصحاب الدراسات الإنسانية التي تهتم بدراسة حياة المجتمعات البدائية ، وأهمها الأنثروبولوجيا ، وأما الثاني فيلتزم به الناظرون في الحياة الفكرية للشعوب المتقدمة . والثقافة في نظر الأولين هي طريقة الحياة ، وفي نظر الآخرين هي نتاج الفكر ، وتشتمل الثقافة بالمعنى الأول على كل نواحي النشاط العادي كالعمل ، والعبادة ، والزواج ، والاحتفالات ، وكل ما يصدق عليه أنه من العادات والتقاليد ، على حين تشمل الثقافة بالمعنى الثاني كل نواحي النشاط الفكري كالفلسفة ، والعلم ، والأدب ، والفن بفروعه المختلفة .

واللغة بالمعنيين السابقين كليهما وعاء الثقافة ؛ فهي بالمعنى الأول تسمى العادات والتقاليد بأسمائها المختلفة ، كما توضع أسماء لأدوات العمل وطقوس العبادة ، ومراسيم الزواج والاحتفالات ، ومن هنا أصبح لزماً على طلاب الأنثروبولوجيا عند دراسة أي مجتمع بدائي أن يقدموا لهذه الدراسة بتعلم لغة هذا المجتمع . وبدراسة ما بها من مفردات تشير إلى النواحي المختلفة من النشاط العادي . واللغة بالمعنى

الثاني تعبر عن الأفكار ، وتمدها بالاصطلاحات الفنية ، وتعكس على التفكير بها ما تتميز به عباراتها من دقة أو لبس ، وما تتميز به هي من غنى أو فقر في طرق التعبير ، ومرونة أو استعصاء على خلق المفردات الجديدة للأفكار الجديدة ، عن طريق الاشتقاق أو تطويع الكلمات الأجنبية لقوالب الصياغة بها ، أو ارتجال الألفاظ على مثال هذه القوالب ارتجالا لا تكلف فيه ولا تعنت .

واللغة بكونها وعاء الحياة ووعاء الفكر أهم رابطة قومية تربط أبناء الشعب الواحد برباط العبارة المشتركة ، والفهم المشترك ، وأهم رابطة بالماضي تربط الأجيال المختلفة من الشعب الواحد برباط توارث هذه العبارة وهذا الفهم . وكل رابطة أخرى إلى جانب اللغة - كالتاريخ المشترك والآداب والعادات - هي نتيجة من نتائج الشراكة في اللغة . ولم تكن رابطة الدم - وإن تكون - في أي شعب من الشعوب أقوى من رابطة اللغة ؛ ذلك بأن رابطة الدم هذه غامضة لا يمكن التعويل عليها ؛ إذ لا يستطيع شعب من الشعوب أن يدعى نقاء دمه ، ولا براءته من الدماء الدخيلة ، بل لا يستطيع إنسان أن يدعى لنفسه نسباً معيناً ثم يقسم على صحته يمينا برة ؛ لأن صحة هذا النسب أو تلفيقه تخضع في الغالب لأسرار بيتية لا يعلنها ، وعلاقات إنسانية ليس لديه سند منها أو دليل ، ومن ثم لم يعد من المقبول أن يدعى العرب الشركة في الدم شركة تشملهم جميعا ، ولا تغادر منهم أحدا ، ولكن من المؤكد أن بين العرب شركة في اللغة لا يفلت منها عربي واحد .

فالقومية العربية بهذا الفهم رابطة بين العرب أهم مظاهرها الشركة في اللغة ؛ فمن تكلم العربية واتخذها لغة له ، وعاش في المجتمع العربي عيشة العربي ، وأحس بما يحس به العرب من ألم أو أمل فهو عربي ، ولو كان فارسي الدم أو تركي أو رومي ، كذلك كان الفلاسفة والنحاة والفقهاء الذين حفلت بهم الدولة العربية الإسلامية ، بل كذلك كان سيبويه وأبو حنيفة وابن سينا وابن الرومي ، مثلهم في ذلك مثل من طالت به الإقامة في بلادنا من الأجانب أو ولد فيها ، فاكتمسب جنسيتنا ، فأصبح واحدا منا ، نفخر بتفوقه لأنه نتاج بيئتنا .

هذه مقدمة لابد منها للرد على المؤلف «ديلاسي أوليري» الذي جعل عنوان كتابه هذا الذي نقدم له :

Arabic Throght and Its Place in History

ولا يخفى من استعماله كلمة Arabic دون كلمة Arab أنه يقصد الإشارة إلى أن الفكر العربي الذي جعل موضوعا للكتاب لم يكن Arab وإنما كان Arabic ؛ أي أنه لم تنتج دائما قرائح عربية ، ولكنه كان فكرا باللغة العربية قام به قلة من العرب وكثرة من غيرهم ، ولا تقتصر هذه الدعوى منه على أن تكون إشارة في العنوان ؛ وإنما تصبح بعد ذلك تصریحا في صلب الكتاب ، حيث يقول في الفصل السادس : « وإنها لحقيقة غريبة أن السكندی أبا الفلسفة العربية كان من بين القليلين من أئمة الفكر العربي الذين كانوا عربا بالعنصر ؛ فأغلب علماء العالم الإسلامي وفلاسفته جرى في عروقهم الدم الفارسي أو التركي أو البربري ، ولكن السكندی نمته قبيلة كندة البمانية . »

والمؤلف بصر على ذلك ، بل يتخذ ذريعة للطعن في العرب ،
وللقول بأنه لولا الشعوب المسلمة الأخرى لما كان للعرب علم ولا فلسفة ،
فهو يقول في كلامه عن الكندي أيضاً : « وما لا فائدة فيه أن ندعى
أن تاريخ الفلسفة العربية يربنا ضعفا في أصالة العقل السامى ، لسبب
واحد : هو أننا لا نجد واحداً من فلاسفة المرتبة الأولى بعد الكندي
عربياً بمولده ، وقليل منهم يمكن أن يوصف بأنه سامى ، . وغوى
هذا الكلام واضحة جداً ؛ فلقد تعود المستشرقون من قبل « أوليرى ،
أن يرموا العقل السامى بعدم الأصالة ، وهذه دعوى تنسب إلى الساميين
عقلاً على الأقل ، وإن لم يكن هذا العقل أصيلاً . ولكن « أوليرى ،
لا يرى في ذلك فائدة تفيد في الطعن على العرب ، ومن ثم يوحى إلى
المستشرقين بمطعن آخر أبلغ في إصابة مقاتل العرب ؛ وذلك أن يسلب
العرب أى تفكير فلسفى ، ويجعل الفلاسفة من طينة غير طينة
العرب تماماً .

والرأى هنا أن من لم يجر في عروقهم الدم العربى من علماء الإسلام ،
ولكنهم عاشوا في المجتمع العربى ، وتكلموا العربية ، وأحسوا بما كان
يحس به العرب هم في الحقيقة عرب باللغة والمكان والإحساس ، وكلما
يعتبر من الروابط القومية أكثر مما يعتبر الدم . « وقد اجتمع هؤلاء
جميعاً على غاية واحدة هى الرغبة الصادقة في خدمة لغة العرب وثقافة
العرب ، فكان كل واحد منهم عربى الفكر ولو كان غير عربى
الدم والنسب ، أو على حد تعبير أبى الحسن بن بشر الأسدى يرقى
أبا العباس محمد بن أحمد المعمرى النحوى :

كان على أجمعى نسبتہ فضيلة من فضائل العرب (١)

* * *

والحياة في كل نواحيها معترك بين الناس ؛ يصدق ذلك على الأمم كما يصدق على الأفراد . ولم يزل الناس منذ قابيل وهابيل إذا لم يحصلوا على ما يريدون بالسلم وصلوا إليه بالحرب والغلبة . ولم يزل الإنسان يطمع فيما في يد أخيه الإنسان ، إن لم يكن بدافع الحاجة فبدافع الأثرة . والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم وإذا حاربت الهمجية الأولى بالاطفار والاحجار ، فقد خلقت المدنية من أظفارها سيوفاً ، رحلت أحجارها من الأكف إلى المجانيق ، كما حولت الحرب من عمل فردي إلى عمل جماعي وقومي ، فعدت الأمة على الأمة ، وأغارت الشعوب على الشعوب ، واختلط هؤلاء وأولئك في صورة تجعل من المستحيل على أحد الفريقين ألا يعرف ما في يد الآخر ، ثم يأخذه عنه بالتقليد والمحاكاة . ولم يزل ذلك أثراً من آثار المخالطة ، سواء أكانت هذه المخالطة نتيجة من نتائج الغزو أو أثراً من آثار الجوار .

والثقافات مجال من مجالات التقليد والأخذ ؛ ذلك أن ثقافة أى شعب إنما هي أمر متوارث على مر العصور ، صالح للتبديل والتحويل قدر ما يتغير العرف والفكر . فإذا عرض لثقافة من الثقافات من المؤثرات ما هو صالح لأن يبدلها أو يعدلها ، كان ما يلحقها من تبديل أو تعديل

(١) اللغة بين الميبارية والوصفية للمترجم . ص ١٧٣

دليل حيوية ومرونة ، لا دليل خسة وركود ، ويصدق ذلك على الثقافات بالمعنيين السابقين جميعاً ، ولقد قامت الدلائل على تأثير الإغريق بالمصريين ، وعلى تأثير الرومان بالإغريق وعلى تأثير كليهما بالفرس وتأثيرهم فهم ، ثم على أثر كل أولئك في العرب ، ثم على أخذ الثقافة الأوروبية عن كل هذه الأمم ، ومن بينها وأشدّها أثراً العرب ، فإذا قال قائل : إن أمة قد أخذت عن أمة ، فذلك سنة الحياة ، وإذا كان ثمة نحر للأمة المعطية فلا عار على الأمة الآخذة ، وإنما لها نحر الفهم والهضم والاستيعاب والإضافة ، والإنسانية وحدة متفاعلة ، وثقافتها كل لا يتجزأ ، وإنما يضيف اللاحق إلى مآثره السابق من كل الأمم والعصور .

غير أن هذه الحقيقة العليا التي لا تقبل الجدل لا ينبغي أن يلتوى بها بعض الكتاب ، وأن يجندوها لصالح ثقافة على حساب أخرى ، على نحو ما تفعل طائفة من المستشرقين . ولشد ما يحلو لهؤلاء أن يتلصوا في الثقافات الشرقية — سواء في ذلك الهندية والفارسية والعربية وغيرها — أموراً يتكفون ردها إلى الفكر الإغريقي أو الروماني ، ويتزيدون في ذلك حتى يوحوا إلى القاريء بفاعلية الغرب وانفعالية الشرق ، ويدفعوه إلى اعتقاد تفوق الذهن الغربي وتواكل العقل الشرقي . وهم في سبيل الوصول إلى هذه الغاية يسوقون من الدعاوى والمغالطات ما لا قدرة للقاريء العادي على رده ؛ فهو إما أن يقف منها موقف المسلم عن جهل ، أو موقف المتحمس لما قرأ إما بدافع

الإعجاب ، أو بدافع الرغبة في الظهور بمظهر المطلع المثقف في غير لغته .

وصاحب هذا الكتاب من بين غلاة المستشرقين الذين يتلبسون في ثقافة العرب ما يرجون أن يردوه لأدنى شبه إلى ثقافة الإغريق أو الرومان ، فالفقه الإسلامى فى رأيه آخذ عن القانون الرومانى ؛ لأن العرب وجدوا فى الأقاليم الرومانية المفتوحة أوضاعا فقهية أقروها ، والفلسفة الإسلامية فى نظره طور من أطوار الفلسفة الهلينية ؛ لأن العرب بحثوا المشاكل الفلسفية التى بحثها الفلاسفة الهلينيون ، والتصوف الإسلامى ذوروافد من الأفلاطونية الحديثة ؛ لأنه انفق معها فى بعض الآراء ، بل إن العقيدة الإسلامية نفسها تشتمل على عناصر هلينية ، لأنها ارتضت بعض ما ارتضته المسيحية أو الفلسفة الهلينية ، وينسب المؤلف أن فقه الإسلام مصدره الكتاب والسنة ، وأن فلسفة الإسلام وإن بدأت فى ظل مؤثرات هلينية قد اشتقت لنفسها طريقا إسلاميا خالصا ، وأنها ارتبطت بالبيئة الإسلامية برباط محكم ، وأن التصوف الإسلامى وإن اشتمل على أفكار شرقية وغربية قد استمد وحيه من سيرة النبي ﷺ ، وأن العقيدة الإسلامية قد بلغها رسول لم يتل قبل القرآن من كتاب ولا خطه يمينه . نسي المؤلف ذلك ، أو لعله تناساه ، ليعلى من شأن الإغريق الأوربيين ، أبناء قارته وبني عمومته وأسلافه الفكريين ، وليحط من شأن العرب إما لدوافع عنصرية ، أو دينية ، أو هما معا .

والحق أن الثقافة العربية يمكن تقسيمها إلى أقسام ثلاثة أقسام :

أولها : أفكار تدور حول الكتاب والسنة شرحاً وتفصيلاً ، وتتناول من أمور البيئة المسئلة أموراً تتصل بتنظيم هذه البيئة ، وذلك كالتفسير والحديث والفقه وأصوله ودراسة الأدب واللغة وهلم جرا ؛ والعرب في هذه الطائفة من الأفكار أصحاب أصالة ، لا يأخذون من الخارج شيئاً ذا بال ، ولا يعتمدون عليه في شيء له خطر ، إلا ما يدعيه بعضهم دعوى غامضة من تأثر النحو العربي بالتقسيمات والحدود لا بالتفصيلات التي في النحو الإغريقي ، من خلال معرفة العرب بالنحو السرياني المتأثر بالإغريق في هذه النواحي. وثانيها : أفكار إسلامية في الإلهيات : سواء في ذلك ما كان منها لأهل الشريعة وما كان لأهل الحقيقة ؛ فأما أهل الشريعة أو أصحاب الفرق والمتكلمون فلا شك في انتفاعهم بالأقيسة الأغريقية المنطقية ، لالفقر المادة الإسلامية إلى هذه الأقيسة ، بل لأن المنطق كان سلاح المناظرين الإسلام من المسيحيين ؛ فرأى المسلمون أن يدافعوا عن دينهم بسلاح مناظريهم . أما مادة الإلهيات عند هؤلاء فلم يرج في المجتمع الإسلامي منها إلا ما استوحى اتجاهه من الكتاب والسنة . وإذا نظرنا إلى أهل الحقيقة أو الصوفية ، فإن موقفهم من ثقافة الإغريق يمكن فهمه إذا أخذنا في الاعتبار العداء الفكري الشديد بين الصوفية والمشائين ، أو بين أصحاب الذوق وأصحاب النظر ، أو بعبارة أخيرة بين أصحاب التجربة وأصحاب الفلسفة . وثالث أقسام الثقافة العربية : أفكار وآراء فلسفية ، اتخذت نقطة ابتداء لها من فلسفة الإغريق ، ثم اتضح للمسلمين شيئاً فشيئاً عمق الهوة التي بين هذه الفلسفة وبين الإلهيات الإسلامية ، فاخطوا لأنفسهم طريقاً فكرياً

خاصاً لا يتعارض مع الإسلام ولا يتطابق مع فلسفة الإغريق . ونمت
فلسفتهم في هذا الاتجاه ، حتى اضطر المدرسيون من فلاسفة المسيحية
أن يعلموا سنخطهم على بعض آرائها ؛ لأنها ذات خطر على الأفكار
المسيحية اللاهوتية . وكان مجال هذا الخطر هو النقطة التي تختلف عليها
الديانتان الإسلامية والمسيحية ؛ وفي ذلك دليل على الصبغة الإسلامية
الخاصة التي كانت لهذه الفلسفة . ولعل هذا القسم الأخير من أقسام
الثقافة الإسلامية أقواها وشيجة بالتراث الإغريقي .

* * *

وحين قرأت هذا الكتاب لأول مرة راعنى منه موقفه من الثقافة
العربية ، وشق على أن يقرأه بعض القادرين على قراءة اللغة الإنجليزية
من العرب فيعتقدون ما فيه من طعن على العرب . دون أن تكون لهم
المقدرة على رد آرائه ؛ فعظم الذين يقرأون الإنجليزية عندنا من غير
المتعمقين في الثقافة العربية القديمة ، ومن هنا لا بد أن
أن تتوقع منهم أن يكون موقفهم من آراء هذا الكتاب هو موقف
للقارئ العادى الذى ورد ذكره ، لهذا قررت أن أترجم هذا الكتاب
إلى اللغة العربية ، وأن أعلق على ما يمكننى التعليق عليه من مغالطاته ،
ثم حين يصبح النص العربى فى يد القراء ، يكون من السهل على أصحاب
الثقافة الإسلامية الذين لا يقرأون الإنجليزية أن يردوا على ما فى هذا
الكتاب بأكثر مما كان فى طوقى أن أرد به فى هذا التقديم .

على أنه لا يجدر بى أن أسلب هذا الكتاب حقه من الثناء ، مهما
كان ميالا إلى التحامل على الثقافة العربية ، ذلك أن المؤلف قد توافر

له من الظروف ما كان كفيلا أن ينتج كتابا من الدرجة الأولى من حيث سعة الأفق الفكري ، وغزارة المنهل الذي يستمد منه معلوماته . فال مؤلف مستشرق إيرلندي الأصل كان يعمل أستاذا في جامعة برستول ، فكانت لغته العلمية هي الإنجليزية ؛ ولكنه كان يحنق إلى جانبها اللغتين الفرنسية والألمانية ، وعددًا من اللغات الحديثة والقديمة في أوروبا والشرق ، كالإغريقية واللاتينية والعربية والسريانية والعبرية والفارسية . فهذه مجموعة من اللغات الهامة لأي باحث يشتغل في ميدان كهذا . فأما اللغات الثلاث الأولى — الإنجليزية والفرنسية والألمانية — فهي وعاء الثقافة الحديثة ، وهي ذات تراث حافل بما كتب عن هذا الموضوع وعن غيره ، وأما اللغتان الإغريقية واللاتينية ، فلا تقلان خطرا في هذا الصدد ، لأن أولاهما تشتمل على ما يرى المؤلف أنه المنبع الذي استمدت منه الثقافة العربية ، وأما الثانية فلأنها عاصرت تفوق اللغة العربية ونقلت عنها ، ونقلت منها ، وقامت إلى جانبها حتى نهاية العصور الوسطى وبداية النهضة الأوروبية الحديثة . فلا مشاحة في أن الكثير مما يرد ذكره في التراث العربي يجد إضاحا له في إحدى هاتين اللغتين أو في كليهما . وأما اللغات الثلاث السامية المذكورة هنا — وهي العربية والسريانية والعبرية — فهي لغات الديانات والوحى ؛ فكل نقاش يدور من قرب أو من بعد حول الدين لا بد أن يعتمد على مادة مكتوبة بإحدى هذه اللغات . وإن العربية والسريانية من بين هذه اللغات لتبرزان أكثر مما تبرز العبرية باعتبارهما لغتي ثقافة هاتين جدا ؛ بل إن العربية من بين هذه الثلاث ظلت حقبة

من الزمان تعتبر اللغة العلمية التي كان لابد لطلاب المعرفة في كل مكان من معرفتها وحذقها . وأما الفارسية فقد اشتملت على تراث إسلامي لا يستهان به ، ولا سيما في الحقل الصوفي . فإذا اجتمع لمؤلف كصاحب هذا الكتاب مثل هذا العدد من اللغات التي تتصل بموضوعه صلة خاصة : فلا شك أن هذا يضع بين يديه من المصادر والمراجع ما لا يستطيع الكثيرون غيره أن يفتنعوا به . وذلك ناحية هامة لا ينبغي إغفالها عند النظر في تقويم هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

وإذا كان ذلك هاماً بالنسبة إلى قيمة الكتاب نفسه ، فلا شك أنه أكثر أهمية بالنسبة لإضافة ترجمة هذا الكتاب إلى المكتبة العربية . ذلك بأن المؤلفين العرب القدماء والمحدثين على السواء لا يجمع الواحد منهم مثل هذا العدد من اللغات في حصيلته ، وكتاباتهم على ما لها من قيمة وما بها من دقة وعمق تستشعر الحاجة إلى سعة الأفق وشمول النظرة . وإن الكثير منهم ليتناول التراث العربي كما لو كان منعزلاً عن التيارات الخارجية ، مستقلاً بنفسه self-contained - لم يؤثر ولم يتأثر ؛ أو يضع هذا التراث في إطار لا يبعد به كثيراً عن هذه الصورة . ومن ثم ينعون في غلطة هي عكس ما أخذناه على صاحب هذا الكتاب ، لأنهم يغالون في دعوى الاستقلال . ويغالى هو في دعوى التأثر والأخذ . فوضع هذا الكتاب في المكتبة العربية إلى جانب ما كتبه هؤلاء المؤلفون العرب سيمكن القارئ المداق من الوصول إلى تقدير مدى تأثير الفكر العربي بالثقافة الإغريقية تقديرًا سليماً .

أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب ينصف الفكر العربي — ولا يستطيع إلا إنصافه — حين يشرح الطريقة التي وصلت بها أفكار العرب إلى أوروبا الحديثة ، وإن كان يغالى في موقف الأوربيين في عصر النهضة من تعاليم الثقافة العربية ، ويصورهم في صورة النقاد الذين يحجمون قصدا عن الأخذ ببعض فروع هذه الثقافة ؛ ولكنهم لم يكونوا نقادا بقدر ما كانوا تلاميذا . يفعل ذلك مثلا حين يتكلم عن سقوط الطب العربي في نظر الأوربيين ، ولكنه مع هذا لا يستطيع أن ينكر أن الجامعات الأوربية كانت تدرس هذا الطب باعتباره جزءا من مناهجها ، وأن الفلاسفة المدرسين انقسموا في تفكيرهم إلى فريقين يحمل كل منهما اسم ابن رشد : فكان منهم « الرشديون » و « خصوم ابن رشد » . ثم هو لا ينكر في مقدمة كتابه أن الفكر العربي « أصبح عاملا مثيراً ؛ فحول الفلسفة المسيحية إلى مسالك جديدة ، وكاد يذيب اللاهوت التقليدي في الكنييسة ، وأدى مباشرة إلى النهضة التي كانت الضربة القاضية لثقافة القرون الوسطى » .

ولكون مؤلف هذا الكتاب مستشرفا ينتمى إلى بيئة ، لا هى بالإسلامية ولا العربية ، يثير في نفوسنا دواعى الانتباه حين نقرأ له رأيه في الفرق الإسلامية المختلفة . بل إنه يثير انتباهنا كذلك حين يتكلم في أعلام الفكر العربي بروح ليس لها موقف تقليدى من هؤلاء الأعلام ، ولعل ذلك من حسنات هذا الكتاب أكثر مما هو من مساوئه ؛ لأنه يعرض هذه الفرق وهؤلاء الأعلام من زاوية لا تتفق كثيراً لانبعاث هذه الفرق والمعجبين بهؤلاء الأعلام ،

ولأن المسلم منا ينظر بعين العطف إلى أبناء مذهبه في الدين ، وبعين الإشفاق إلى أبناء المذاهب الأخرى ، ومن ثم يصعب عليه عند إرادة البحث العلمى الذى لا يعرف العطف والإشفاق . أن يتخذ لنفسه موقفاً خلوا من أى منهما .

وبعد ، فهذا كتاب أقدمه للناس بعد أن اقتنعت بأنه ينقص المكتبة العربية ؛ لأن موضوعه على خطورته لا يستطيع الوصول اليه تاماً أبداً فى الكتب العربية ، فإذا وصل المرء إلى جملة فلن يكون ذلك إلا بالجهـد المضنى فى قراءة المطولات ، وانتخاب الموضوعات ، وتمحيص العبارات .

والله أسأل أن يجعله بحيث قصدت به أن يكون نافعاً ومفيداً ، إنه هو — سبحانه — ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم النصير ؟

المرجم

المعادى فى يناير سنة ١٩٦١

مقدمة

يتتبع التاريخ تطور البنية الاجتماعية التي يوجد المجتمع اليوم فيها ؛ وثمة ثلاثة عوامل رئيسية تعمل في هذا التطور ، هي : التسلسل العنصرى القومى ، واتجاه تيار الثقافة ، وانتقال اللغة . وأول هذه العوامل فسيولوجى ؛ ولا يتحتم أن يكون متصلاً بالعاملين الآخرين ، على حين لا يرتبط كل من هذين العاملين بالآخر بصفة دائمة . وأهم عامل في تطور البنية الاجتماعية هو تناقل الثقافة ، وهو ليس أمراً من أمور الوراثة ، ولكنه يعود إلى الاتصال ؛ لأن الثقافة تتعلم ، وتستفاد بالتقليد ، ولكنها لا تورث . ويجب أن نفهم الثقافة هنا في أعم معانيها لتشمل بها النظم السياسية والاجتماعية والقشريعة ، كما تشمل بها الفنون والحرف والدين ، والأشكال المختلفة للحياة العقلية التي تظهر في الأدب والفلسفة والميادين الأخرى . وهذه الأشكال جميعها متصل بعضها ببعض إلى حد ما ، ولها طابع عام يشملها ، هو أنها لا تورث من الأب لابن ، بل تتعلمها في الحياة بعدئذ . ولكن العنصر والثقافة واللغة يتشابه بعضها ببعض من حيث هي جميعاً متعددة النواحي ، متشابهة الأطراف دائماً ؛ حتى إن مسلك انتقالها يبدو أشبه بخيط التف بعضه على بعض ، منه بنموذج منظم . وتأتى النتائج من مجموعة متعارضة من الأسباب يصعب أن تحدد بينها الآثار النسبية . والثقافة الأوروبية الحديثة مشتقة من ثقافة الإمبراطورية الرومانية التي كانت هي بنفسها مجموعة من النتائج التي تمخضت عنها

مؤثرات متعددة . كانت الحياة العقلية الهلينية أقواها . ولكن هذه النتائج تفاعلت فأسفرت عن نظام متماسك ، عن طريق القدرة الرائعة على التنظيم ؛ وهى قدرة تعتبر أبرز ما كانت تتميز به تلك الإمبراطورية . وإن جميع الحياة الثقافية فى أوروبا فى القرون الوسطى لتبدو فيها هذه الثقافة الهلينية الرومانية المأخوذة المعدلة بحسب الظروف . وحين تبددت الامبراطورية أيدى سبا ، أصبح مجموع الثقافة عرضة لظروف مختلفة ، فى أماكن مختلفة ؛ وأوضح مثال لذلك ما نلاحظه من اختلاف بين الشرق الذى كان يتكلم الإغريقية ، والغرب الذى كان يتكلم اللاتينية ، أماجى . التأثير الإسلامى بطريق أسبانيا ، فلعلة الحالة الوحيدة التى نجد فيها ثقافة أجنبية تدخل فى التقاليد الرومانية ، وتترك أثراً فعالاً فيها .

والحق أن هذه الثقافة الإسلامية فى أساسها وفى جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية (١) . بل إنه حتى علم التوحيد الإسلامى قد تحدد

(١) مثل هذه الدعوى العريضة ينضج بالتعصب ضد العرب والإسلام ، ويتناقى مع ما للأمانة العلمية من احترام واجب . ولست أدري كيف يتجاهل المؤلف ما للقرآن - وهو أساس الثقافة الإسلامية - من خطر ، ليدعى أن أساس هذه الثقافة هلىنى . وهو يتناسى ما للحديث من أثر ، ويدعى الصيغة الهلينية لكل ما جاء به الإسلام . أفسكان من الأساس الهلىنى أن رفض المسلمون التمايل والصور ، وعزفوا عن ترجمة الأدب الإغريقى - وهو جماع ألوان الثقافة عند الإغريق ؟ أو كان من الثقافة الهلينية ما جاء به عمر من أصول القضاء ؟ أو يرى الرأى فى الفن الإسلامى القائم على الزخرف الهندسى ، أو فى العبارة الإسلامية التى ابتدعت لنفسها تطوراً خاصاً ، أو فى الفلسفة الإسلامية التى احترمت دائماً كلمة التوحيد ، أو فى التصوف الإسلامى الذى اتخذ غارحراء نقطة بداية له ، أو فى الإلهيات الإسلامية التى رفضت التعدد والكلام فى الذات ، أقول : أو يرى الرأى أى أساس هلىنى لكل أولئك ؟ الجواب عند تعصب المستشرقين !

وتطور بواسطة منابع هيلينية ، ولكن الإسلام ظل مدة طويلة منعزلا عن المسيحية ، وحدث تطوره في بيئات تختلف عنها تماما ، حتى ليمدو غريبا عليها ، أجنبيا عنها . وتظهر أعظم قوة له في أنه قد عرض المادة القديمة في شكل جديد جدة تامة .

وسيكون من هم الصفحات اللاحقة أن تتبع انتقال الفكر الهليني بطريق الفلاسفة المسلمين ، والمفكرين اليهود الذين عاشوا في بيئات إسلامية ، حتى نرى كيف أثر هذا الفكر في الثقافة المسيحية اللاتينية في القرون الوسطى ، بعد أن تعدل بمروره بمرحلة تطور في المجتمع الإسلامي ، وعدل بدوره الأفكار الإسلامية . لقد تغير كثيرا في شكله الخارجى خلال القرون التي ظل فيها منعزلا ، حتى بدأ نوعا من أنواع الحياة العقلية ، وأصبح عاملا مثيرا ، فحول الفلسفة المسيحية إلى مسالك جديدة ، وكاد يذيب اللاهوت التقليدى في الكنيسة ، وأدى مباشرة إلى النهضة التي كالت الضربة القاضية لثقافة القرون الوسطى ، ولم يتغير في مادته الحقيقية إلا قليلا جدا ؛ حتى إنه كان يستعمل نفس المصطلحات ، ويفكر تقريبا في نفس المشاكل التي كانت تفكر فيها الفلسفة المدرسية التي نشأت مستقلة في ظل المسيحية اللاتينية . وسيكون من ههنا أن تتبع تاريخ الفكر الإسلامى في القرون الوسطى ، لتظهر العناصر المشتركة بينهما وبين التعاليم المسيحية ، ولعلل جهات الاختلاف .

ديلاسى أو ليرى .